صخرة الأسرار

قال مِسْكين الدارمي[1]: (بحر الطويل)

١ وفتيانِ صدقٍ لَسْتُ مطلعَ بعضِهم *** على سِرِّ بعضٍ غيرَ أَني جِمَاعُها
٢ لكلِّ امرىءٍ شِعْبٌ منَ الْقَلبِ فارغٌ *** وموضعُ نجوى لا يُرامُ اطِّلاعُها
٣ يَظَلُّونَ شتى في البلاد، وسرُّهم *** إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انْصداعُها

ذُكِر في بعض كتب التراث أن منسوبا إلى العلم والعقل كان يعلم أخبارا خطيرة لا تحتملها عقول العوامّ من حوله، فلم يستطع أن يخبر بها أحدا، فضاق صدره بها، فكان يبرز إلى العراء وحيدا يحفر بها حفرة صغيرة، ثم ينكب عليها فيحدث فيها بما في جوفه من أخبار، فبهذا الصنيع كان يروح عن قلبه، وتهدأ نفسه، وتسكن روحه، لشعوره العميق أنه قد نقل سره المكتوم من وعاء إلى وعاء!

وإذا جرب المرءُ الناسَ وعاداتهم، ودقق في طبائعهم وأحوالهم، لا سيما مع تقلبات الظروف والأحوال عليهم، وانحلال عرى المودة بينهم، أدرك أن خلَّةَ كتمانِ الأسرار أندرُ من الكبريت الأحمر، وأن غالبهم يستشعر أن للأسرار تاريخ ولادة وكتمان أيام الوداد، وتاريخ وفاة ونشرٍ وإعلان لحظاتِ البعاد، وكثير من خاصة العقلاء لا يبتدرون نشر الأسرار كفاحا، وإنما تراهم إذا ملكوا ألسنتهم عن الابتداء بإفضاء الأسرار ونشر الأخبار، لم يتمكنوا من محو تغيرات ملامح الجبين، واحمرار الوجنات، والضحك أو التمعُّر، والإضافة أو الإكمال والتعديل، وذلك إذا ورد على مسامعهم خاطرٌ متعلق بذلك السرّ المكتوم!

ومن كتم شيئا من ذلك في أيام القرب والصفاء، لم يقدر على مثله في أيام البعد والجفاء، وكالعادة سيجد كل كائنٍ يمشي على وجه الأرض تأويلا قريبا لما يشتهي أن يفعله مما يشفي به غيظَه، ولن يعدم ثوبا سابغا يخرّج به دوافعه النفسية وتصرفاته الأخلاقية، وإنما يُعرف معدنُ

[1] ربيعة بن عامر بن أُنيف بن شريح الدارميّ التميمي، شاعر أموي، لُقِّب مسكينا لأبيات قال فيها: (أنا مسكين..)، ومن شعره المشتهر في كتب النحاة: (أخاك أخاك، إن من لا أخا له *** كساع إلى الهيجا بغير سلاح).

الرجال زمن الخصومات، والشهم وإن سمح للغضب أن يلجَ باب قلبه، فإنه لا يمنحه فرصة الاحتلال الكامل لروحه، ولا يهبه السيطرة التامة على إرادته، ولا يملِّكه مفاتيحَ تصرفاته، بل يغضب ذوو الشهامة كغيرهم ثم تبقى لديهم حدودٌ من الأخلاق لا يتجاوزونها، وتظل عندهم حرمات للخصومة لا ينتهكونها، وسيظل كشف أسرار الأصدقاء بقصد الإمعان في النكاية عند الخلافات هو آخر جدران الأخلاق الكريمة!

***

ذكر العلامة ابن حزم الأندلسي قصةً طريفةً له مع أحدِ أصدقاء الرخاء هؤلاء، أولئك الذين تسبب حرارة الغيظ جزْرا في أخلاقهم الكريمة، فيفزعون إلى كشف الأسرار المبثوثة في المجالس الخاصة، -وعادةً المرء أن يلقي تسعة أعشار تحفُّظه في المجالس الخاصة-، والأعجب في القصة هي شهامة ابن حزم في تعاطيه مع تنكُّر صاحبه له وانقلابه عليه، فلم يقارضه على الانحطاط بانحطاط، وإنما بادر لإذهاب قلق صاحبه بأبيات يونّسه بها! فلله درَّه! قال ابن حزم:

(كان لي مرة صديق، ففسدت نيَّته بعد وَكِيدِ مودَّةٍ لا يُكفَر بمِثلِها، وكان علم كل واحد منا سرَّ صاحبه وسقطت المؤنة، فلما تغير علي أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعتُ منه على أضعافه، ثم اتصل به أن قوله فيَّ قد بلغني، فجزع لذلك وخشي أن أقارضَه على قبيح فعلته، وبلغني ذلك فكتبت إليه شعرا أونسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه) .

رضي الله عن ابن حزم الأندلسي على شهامته النادرة، فرغم كونه اطلع على أسرار صاحبه أكثر مما اطلع عليه صاحبه من أسراره، لكنه لم يستعمل هذه الثغرة لإلحاق الأذى بصاحبه.. فأخلاق الرجال لجامٌ وثيق يشتدُّ طوقُه في أعناقهم كلما دعاهم الغضب بأعلى صوته إلى حظيرة الانتقام!

لذلك كله أعجبتني أبيات مسكين الدارمي، فقد أشار في أبياته الثلاثة إلى ثلاثة معان متظاهرة في توكيد معاني الكتمان:

أحدها: أن إفضاء أحدهم بأسراره إليه لا يحمل مسكينا على أن يفضي بأسرار الآخرين إليه، فهو لا يطلع بعضهم على أسرار بعض! فكثير من الناس يجعل معرفة أسرارك رخصة فورية لكشف أسرار الآخرين لك.

الثاني: أن اقتراب أحدهم كابتعاده، له موضع من القلب فارغ لا يرام الاطلاع عليه.

الثالث: حين شبه صدره بالصخرة التي لا تنصدع، ففي الصخرة معنى الاستقرار والثبات على مر الزمان وتبدلات الأحوال، وانقلاب المودة أو انحسارها.